أولا : ظهور الزراعة في المغرب القديم

1- بدايات الزراعة في المغرب القديم:

قبل ظهور الزراعة عاش السكان الأوائل كباقي سكان العالم على الالتقاط (ما توفره الطبيعة من فواكه ونباتات مختلفة) والصيد الذي كان لمدة زمنية طويلة المصدر الأساسي لغذاء السكان حتى بعد الانتقال لمزاولة الرعي والزراعة.

وتشير كل المعطيات إلى أن ظهور الرعي سبق الزراعة، فقد تمكن الإنسان المغاربي من تحويل بعض الحيوانات إلى حيوانات أليفة، وأفضل مثال على مثلما سبق ذكره هي تلك الرسوم الصخرية التي تظهر أن أول حيوان دجن هو الثور (والذي يعرف اليوم بثور قالمة) وكذا الأغنام.

لكن التساؤل الذي لا طالما مثل جدلا بين المؤرخين هو متى وكيف ظهرت الزراعة في المغرب القديم؟ فالكثير منهم يشير أنها كانت وليدة توافد الفينيقيين و إسهامات القرطاجيين، وهذا اعتمادا على شهادات العديد من المؤرخين القدامى مثل أبيانوس وبلين الذين ادعيا أن الليبيون لم يعرفوا الزراعة من قبل. غير أن الأبحاث الأثرية لا تزال إلى يومنا تقدم لنا البراهين لقدم هذا النشاط بشمال افريقيا منذ عصور ما قبل التاريخ.

فغزال رفض تماما فكرة دخول الزراعة مع الفينيقيين، وقال "إن أهالي هذه المنطقة لم ينتظروا مجيء البحارة السوريون لممارسة الزراعة والرعي" ، وحسب رأي كامبس فإن الإنسان القفصي قد مارس عملية جني الثمار منذ أوائل العصر الحجري الحديث، مما تدل عليه تلك الأدوات القفصية المتمثلة في والكويرات الحجرية والمناجل وغيرها . لكن هل يعتبر وجود مثل هذه الأدوات دليلا على ممارسة المغاربة القدماء النشاط الزراعي منذ فترة النيوليتي؟ الأمر لا يزال محل جدل كبير.

إن كانت الأدوات الحجرية لا تقدم لنا دليلا حول بدايات الزراعة، هنا نرجع للرسومات والألواح الصخرية، فأقدم الأدلة التي تشير إلى ظهور الزراعة هي الرسوم الصخرية بمخبأ الأروية في الشافية بضواحي القالة، والتي تعود لأواخر العهد النيوليتي وتقدم لنا شكلا شبيها بالمحراث، وأيضا الرسوم الصخرية في "أعزيب نيكيس" في الأطلس الأعلى بالمغرب الأقصى، والتي تظهر الرسوم بشكل أكثر دقة ثوران يجران محراث يدفعه إنسان وتعود على الأقل للعصر البرونزي.

كما تؤكد لنا آثار جبل بوزيان (تازبنت) غرب تبسة وجود نشاط زراعي متطور، حيث أن الإنسان لم يكتف باستغلال الأراضي السهلية بل وقام باستصلاح أراضي أخرى في منحدرات هذا الجبل، حيث قام بتحويل هذه المدرجا إلى مربعات يتراوح ضلعها بين 20 و50متر، وبنى أمام كل مدرج سورا بسمك يتراوح بين 60 و80سم بهدف حماية التربة من الانجراف ولتخفيف من سرعة المياه والمنحدرة ومنعها من الضياع والسماح لها بالتسرب داخل التربة حتى تمون الينابيع والآبار

كما تدل الآثار الجنائزية المكتشفة في القبور وما احتوته من أواني، والصخور المنتشرة في جبل بوزيان قرب جبل تارنيت أن الذين بنوا القبور هم الذين استصلحوا الأراضي وبالتالي هم مزارعون مستقرون وليسوا من البدو الرحل. إن هذا الإنجاز يدل أن الإنسان خطى خطوة كبيرة في مجال الزراعة والاستقرار حتى في المناطق الجافة

أما عن الانتقال من الرعي إلى الزراعة فلا يمكن القول بهذا الانتقال، لأنهما نشاطان متوافقان ومترافقان إلى غاية اليوم، وكثيرا ما كان السكان يتخلى عن الزراعة والاعتماد الكامل على الرعي في مواسم الجفاف، كما ان الزراعة لا يعمل بها إلا خلال فترتان من السنة (البذر والحصاد) وكان الرعي يوفر الحيوانات العاملة في الزراعة كالحرث ونقل الحصاد، واستعمال فضلاتها كسماد.

وعلى العموم ومما سبق يمكن القول أن تاريخ ظهور الزراعة بالمغرب القديم يعود إلى نهاية العصر النيوليتي على الأقل (حوالي 4000ق.م)، وكان انتشارها تدريجي وبطيء جدا بسبب انعدام سلطة مركزية تمنع انتشار الفوضى والصراعات، كما ساعد تطور العتاد الفلاحي سواء عن طريق التجربة أو الاحتكاك بشعوب اخرى كالفينيقيين القرطاجيين مثل المحراث الذي يعتبر ثورة في مجال الزراعة وسمح باستغلال مساحات أوسع، وظهور أنواع مزروعة جديدة.

2- أقدم أنواع الزراعات المعروفة:

اعتبرت زراعة الحبوب في شمال افريقيا هي أقدم الزراعات المعروفة إلى الآن، حيث ظهرت ومورست منذ فترة باكرة جدا، أبعد من بداية الاستيطان الفينيقي كثيرا، ذلك ما يستدل حسب البعض من التسميات المحلية المعروفة للقمح "ارذن Irden" والشعير "تمزينTimzin"، والتي هي أسماء محلية لهذه المنتجات مما يجعلها مزروعات أصيلة، ويرى كامبس أن مكانة القمح والشعير عند المغاربة القدماء تتفاوت من منطقة لأخرى، ففي المناطق الجبلية يحتل الشعير المكانة الأولى نظرا لكون التربة بها خفيفة ومناسبة لزراعته عكس المناطق السهلية التي يأتي فيها القمح الصلب في المقام الأول.

وقد انتشرت زراعة الحبوب شرق تونس قبل تأسيس قرطاجة، وكذلك انتشرت حتى شمال الصحراء في بلاد الغرامانت ، وتطورت في ما يعرف بالمناطق البونية، وقد مورست حول المستوطنات الفينيقية والقرطاجية إلى مضيق جبل طارق ، وإن كانت الزراعة قد ظهرت قبل قرطاجة لكنها بكل تأكيد تطورت بفضل تأثيراتها وحسب الكتاب القدامى فالفضل في مزاولة النشاط الزراعي لنوميديا يعود الفضل فيه لماسينيسا. بعد توليه الحكم في نوميديا عام 203 ق.م حيث أعطى للزراعة دفعة قوية ، و اعتبره الكثير من المؤرخين مدخل الزراعة إلى نوميديا " فبوليب polybe " يعلن بصورة قطعية ان نوميديا كانت تعتبر غير مجدية و غير قادرة على الإنتاج وان ماسينيا وحده هو من اظهر إمكانياتها الفلاحية و يقول في هذا الشأن انه : " انه العمل الكبير و الرائع فقبله كانت نوميديا بطبيعتها غير مجدية و لا تستطيع ان تقدم إنتاج زراعيا ، انه الأول و الأوحد الذي اظهر بأنها يمكن ان تنتج كل الخيرات ، مثلها مثل غيرها من الأقطار لأنه قام بتهيئة مساحات شاسعة تهيئة جيدة بعد "بوليب" يأتي " ستربون strabon " ليعيد ما دونه ثم يأتي " ماكسيم فاليريوس Valére Maxim " نقل عن " تيتليف Tite Live " و " ابيان Appien الذين توسع فيه و حسب "سترابون " فان ماسينيسا هو الذي جعل النوميديين اجتماعيين ، مواطني مدن و فلاحين و علمهم ان يكونوا جنودا بدلا من ان يمارسوا القرصنة.

أما زراعة الأشجار فنجد جدلا حول بدايتها مع قدوم الفينيقيين أو وجودها قبل قدومهم ، وعموما ازدهرت هذه الزراعة مع الفينيقيين الذين يعود لهم الفضل في كيفية استخدام معاصر الزيتون ، واهتموا بها كثيرا فبدؤوا بزراعة الكروم والزيتون واستعملوا في ذلك السكان المحليين، وهذا لتوفير منتجات النبيذ والزيت التي كانت من أهم سلعهم التجارية، وخلال قرون التالية انتشر هذا النوع من الزراعة بشمال افريقيا وإن كان ذلك ضمن حدود ضيقة، وأهم مناطق

انتشارها كانت بالأراضي البونيقية والمجاورة لها، وكذا بالمدن الداخلية الكبيرة مثل سيرتا التي كانت محاطة بالبساتين وحدائق الأشجار (الفواكه والخضر) والتي كانت غذاء أساسيا إلى جانب الحبوب ، أما في المناطق الأخرى فكانت زراعة أشجار الزيتون هي الغالبة وهنا نشير إلى أنهم أخذوا من الفينيقيين تسمياتهم (زيتون + زيت) والتي هي كلمات سامية في الأصل، مما يجعل البعض يتخذه كدليل أن المغاربة اقتبسوا عن الفينيقيين كالتلاميذ. ويحدثنا هيرودوت عن قبائل الماكسيس الذين يسكنون وراء بحيرة تريتون، ولقبهم بالليبيين المزارعين حيث تواجدت زراعة الكروم والزيتون.

كما عرفت الزراعة منتجات أخرى ممثلة في الكروم التي كانت تنمو بشكل بري محليا منذ الزمن الجيولوجي الرابع حسب غزال ، ونفس الشيئ يقال عن اللوز الذي تتوفر فيه خصائص الشجرة المحلية في بلاد المغرب مع أنه يحمل اسما عربيا عند جميع المحليين ، أما التين فإن جل الكتابات التاريخية تجمع على أصوله الشرقية يرى غزال دوما أنه تم إدخالها للمغرب عن طريق الفينيقيين ، وأيضا منتجات أخرى ازدهرت في فترة العهدي الفينيقي والقرطاجي كأشجار اللوز البري، أنواع من البقول والخضروات كالفول والعدس والحمص...الخ، وإن كان كامبس يقول بمعرفة الليبيين القدماء لهذه المنتجات استنادا للأسماء الأمازيغية لبعضها.

أما في الصحراء فقد أشار هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد إلى وجود عدد كبير من الواحات تابعة للإثيوبيين (سكان الصحراء السود) الذين غرسوا حولها الأشجار وخاصة النخيل، ويشير بهذا الصدد لقبائل الناسامون الذين يرتحلون صيفا إلى أوجلة ليجنوا البلح الذي كان مثقلا بثماره ، ويبدو أن تواجدها (ظهورها) سبق هيرودوت بوقت طويل، وربما اقتبسوها عن المصريين، وحتى أن قرطاجة التي قامت بالتغلغل بصحراء تونس وزرعت عدة واحات كانت تابعة لها، وتبعها في ذلك عدد من ملوك نوميديا.